قراءة في كتاب (تحفة الامراء في تاريخ الوزراء) لأبي الحسن الهلال بن المحسن الصابي

صباح هادي الله الدهيسي
لندن

يعتبر كتاب الوزراء للصابي ، ككل الكتب النادرة ،العاكسة لفترة النضوج الفكري في الثقافة الإسلامية ،حيث يشتمل على حلقة مهمة من التاريخ ، تدعو إلى أن يحرص المؤرخ على مراجعتها. فنجد فيه آثاراً تاريخية نادرة ، وحقائق تدعو الى العظة والاعتبار ، توضح ما كانت عليه الحال في خلافة المقتدر وما سبقها. والأهم أن ذلك الأثر المدون يظهر المساهمة العراقية بشقها الصابئي ،الماكث جليلا حتى اليوم في طبقات الخصوصية الثقافية العراقية ، حينما أسهم في إرتقاء الفكر والنتاج الحضاري الإسلامي ،دون حساسية دينية أو طائفية أو نحلية ، كما يراد أن يسوق ويروج له اليوم ،وكيف كان التسامح والتعايش سائدا ،حينما تداعى الى أن يسمو النتاج الفكري إلى مصاف لم تطأه حاضرة البتة ، وأن تصبح بغداد بالمسلم وأخيه من الملل الأخرى سرة الدنيا وقوة الزمان على إمتداد العصور.

لقد طبع الكتاب سنة ١٩٠٤ ميلادية ونفذت طبعته الأولى من السوق منذ زمن طويل ، وقد كانت الطبعة الأولى حافلة بالاخطاء والغموض ، الى ان تمت الاستعانة بمخطوطة الأزهر ، التي لا يوجد غيرها في مصر ، فحققه عبد الستار أحمد فراج وطبع للمرة الثانية من قبل دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٥٨ وقد نفدت هذه الطبعة ايضا في حينها.

ويتبين القارئ لهذا الكتاب الأنظمة التي كانت تسير عليها الدولة العباسية، وأنواع الرقى في الدواوين، والدقة في نظام المراسيم وإثباتها والتوقيع عليها، وحفظها في ملفات ، وما كان يتبع في أمور المخاطبات والمكاتبات الصادرة والواردة. كما يرى الحقائق التاريخية المريرة القاسية، والجزاء الإلهي العادل الذي يحل بأصحابه على ما قدمت ايديهم، وكيف كانت تحاك المؤامرات والدسائس، وكيف كانت النساء الجواري يتدخلن في تغيير الحكم وتبديله لمصلحة مادية ذاتية أو رغبة في الانتقام، وما كان ينفق في سبيل الوصول الى المناصب، مع ما كان يعقب ذلك من مصادرات وما يحل من ويلات.

كل ذلك ورد أشبه بالقصص الفنية الرائعة بل كما قيل الحقيقة أبدع من الخيال. إن الحقائق المروية في هذا الكتاب، والمصائر الحسنة والسيئة، تقوم المعوج، وتهدي الضال، وتشجع المخلص المستقيم على ان يستمر في سلوكه سواء السبيل.

المؤلف

هو هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن حبون الصابئ الحراني مؤلف كتاب الوزراء ولد سنة ٣٥٩ وتوفي سنة ٤٤٨ هـ. وكان من أسرة نبغت في العلم والأدب والتاريخ والطب ، وكانت لهم قدم عند الحاكمين. فجده الأكبر إبراهيم بن زهرون كان طبيبا مشهورا، مات سنة ٣٠٩ هـ. ((عيون الأنباء)) الجزء الأول .

وهلال بن إبراهيم بن زهرون أبوالحسين والد جد المؤلف كان أيضا طبيبا ((اخبار العلماء)) وله ذكر في تاريخ ابن العبري ص ٢٩٠ . وثابت بن ابراهيم بن زهرون ابو الحسن ، وهو عم جد المؤلف كان من أشهر الأطباء، وتروى عنه النوادر البارعة في فنه، ولد سنة ٢٨٣ وتوفي سنة ٣٦٥ ، او سنة ٣٦٩ هـ وروى بعض أخباره هلال بن المحسن ، ووالده المحسن . أنظر ((عيون الأنباء)) الجزء الأول و ((أخبار العلماء)) .

أما جده أبو إسحاق إبراهيم بن هلال فإنه كان أديبا كاتبا شاعرا، تقلد ديوان الرسائل وله مؤلفات ، ولد سنة ٣١٣ وتوفي سنة ٣٨٤ هـ وقد عرض عليه عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الوزارة إن أسلم ، فامتنع ، ومع هذا فقد كان يصوم شهر رمضان مع المسلمين ، ويحفظ القرآن أحسن حفظ ، وكان يستعمله في رسائله. وقد أثنى الشعراء على رسائله حتى قيل :

أصبحت مشتاقاً حليف صبابة
برسائل الصابي أبي اسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجى
ذوب البراعة سلوة العشاق
طوراً كما رق النسيم وتارة

يحكى لنا الأطواق في الأعناق
والمحسن والد المؤلف كان أديباً وكان يلقب صاحب الشامة ، ونقل ياقوت عن خطه في معجم الادباء ((انظر ترجمة أبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين)) . وابن المؤلف غرس النعمة محمد بن هلال له عدة مؤلفات، ولد سنة ٤١٦ وتوفى سنة ٤٨٠ . أما أخوال المؤلف فإنهم ذرية ثابت بن قرة الصابئي الطبيب العالم الفيلسوف ((انظر ترجمته مثلا لدى ابن خلكان)) وأغلب ذرية ثابت بن قرة أطباء ومؤلفون ، والخطأ يقع من بعض المؤرخين ، فيذكرون أن ثابت بن سنان ابن ثابت بن قرة هو خال هلال بن المحسن ، ذكر ذلك في عيون الأنباء في ترجمة ثابت ، كما ذكره القفطي في كتابه أخبار العلماء ، وابن العبري في تاريخه ، لكن الحقيقة أن ثابت بن سنان هو خال ابراهيم بن هلال الصابئ جد هلال بن المحسن ابن ابراهيم . ففي معجم الأدباء في ترجمة ثابت بن سنان يقول ياقوت: " وقال أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ يرثي خاله أبا الحسن ثابت بن سنان بن ثابت ابن قرة .. " وهذا وعمر ابراهيم بن هلال من ٣١٣ . ٣٨٤ يتناسب مع كونه ابن أخت ثابت بن سنان المولود في أواخر القرن الثالث ٢٩٥ تقريبا والمتوفى سنة ٣٦٥ أو ٣٦٦ هـ . هذا وثابت بن سنان له كتاب في التاريخ ، وكتاب في أخبار الشام ومصر.

وكان هلال بن المحسن أديبا فاضلا أخذ عن أبي على بن الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي صاحب المؤلفات في علوم العربية المتوفى سنة ٣٧٧ هـ كما أخذ عن أبي الحسن علي بن عيسى الرماني المولود سنة ٢٩٦ والذي كان من كبار النحويين ومتقنا للغة والفقه وغيرهما وتوفي سنة ٣٨٤ هـ ومعنى هذا ان هلالاً تلقى العلم على اشهر العلماء وهو صغير ، ما يدل على مكانة أهله وسمو مركزهم.

وكنية هلال في أغلب تراجمه هي أبو الحسن ، جاء ذلك مثلا في معجم الأدباء وابن خلان ونزهة الألباب في ترجمته في كل منها. وقد ذكر في النقل عنه في موضع آخر أنه أبو الحسين ، انظر مثلا معجم الأدباء في ترجمة أحمد بن محمد بن الفضل بن الخزاز ، وانظر معجم البلدان ج ١ ص ٣٨٢ ((انطاكية)) و ج ٢ ص ٢٧٢ ((حساس)) لهذا قد تكون له كنيتان أو أن إحدى الكنيتين تحريف من النساخ. وقد ناب هلال عن جده في تولي ديوان الإنشاء، كما تولى الكتابة لفخر الملك محمد بن خلف.

مؤلفاته

١ . الوزراء أو أخبار الوزراء أو تحفة الأمراء.

٢ . غرر البلاغة في الرسائل ، وهذا الكتاب توجد منه نسخة بدار الكتب. وذكر الاستاذ ميخائيل عواد أن هناك نسخة منه موجودة في خزانة المكتب العلمي الملوكي في بطرسبرغ.

٣ . رسوم دار الخلافة . وتوجد منه نسخة بدار الكتب مصورة عن نسخة بمكتبة الأزهر. ويقول الأستاذ ميخائيل عواد انه فرغ من تحقيقه والتعليق عليه وأعده للنشر.

٤ . كتاب في التاريخ اشتمل على الاحداث التاريخية من سنة ٣٦٠ هـ الى سنة ٣٣٧ هـ ولا يوجد منه إلا قطعة صغيرة نشرها آمد روز ملحقة بكتابه تحفة الأمراء وهي تشمل على حوادث سنة ٣٨٩ الى سنة ٣٩٣ هـ.

٥ . كتاب بغداد ، وسماه الصفدي كتاب أخبار بغداد ، نقل عنه ياقوت في معجم البلدان ج ٢ ص ٢٥٥ ((الحريم)) : وقرأت في كتاب بغداد تصنيف هلال ابن المحسن الصابي .. وفي ج ٢ ص ٥٤٢ ((الداهرية)) وقال ابن الصابي في كتاب بغداد وفي ج ٢ ص ٥٦٥ ((درتا)) وذكر الصابي في كتاب بغداد وفي ج ٤ ص ١٢٣ ((قصر ابن هبيرة)) وقال هلال بن المحسن في كتاب بغداد .

٦ . الأعيان والأماثل أو الأماثل والأعيان.

ففي ابن خلكان في ترجمة ابن الفرات علي بن محمد : الأعيان والأماثل . وفي الفهرست سماه كتاب الأعيان والأماثل.

وفي ابن خلكان في ترجمة هلال بن المحسن : رأيت له تصنيفا جمع فيه حكايات مستملحة وأخبارا نادرة وسماه كتاب الأماثل والأعيان ومنتدى العواطف والاحسان. ومثل ذلك في شذرات الذهب في ترجمة هلال حوادث سنة ٤٤٨ هـ ومعجم الادباء في ترجمته. وقد ذهب بعضهم الى ان كتاب الاماثل والاعيان هو كتاب الوزراء ، لأن معجم الأدباء وابن خلكان نقلا قصة في الاماثل والاعيان ، توجد في كتاب الوزراء بنصها. لكن وصف ابن خلكان لكتاب الاماثل يدل على انه مجلد واحد ، يدل على ذلك ان ياقوت في معجم الادباء، في ترجمة أبي الفرج الاصفهاني علي بن الحسين يقول : " حدث الرئيس أبو الحسن هلال بن المحسن بن ابراهيم بن هلال الصابي في الكتاب الذي ألفه في أخبار الوزير المهلبي .." فكأن أخبار بعض الوزراء كانت من الكثرة بحيث صارت كتبا قائمة بنفسها . والوزراء الذين تناولهم الصابي لا يكفي في ذكرهم مجلد واحد ، وهذا واضح من القسم الذي في ايدينا.وهذه كتب اربعة عدها الصفدي في الوفي بالوفيات نقلها آمد روز في مقدمة طبعة سنة ١٩٠٤ مضافة الى الكتب الأخرى التي ذكرها وذكرناها : (١) كتاب رسالة انشأها عن الملوك والوزراء تقارب رسائل جده أبي اسحاق (٢) كتاب مآثر أهله (٣) كتاب الكُتّاب (٤) كتاب السياسة.

ثروته وسبب تأليفه التاريخ ولقبه

يذكر ابن الجوزي في المنظم ج ٨ ص ١٠١ في ترجمة الحسن بن الحسين أبي علي الرخجي الذي كان وزيرا لشرف الدولة والمتوفى سنة ٤٣٠ هـ ما يأتي : كان فخر الملك قد سلف أقواما مالا ، ولحن بأسمائهم . أي جعل لها رموزا . وكنى عن القابهم ، فكان فيها : عند الكوسج اللحياني عشرون ألف دينار. وعند بسرة بقمعها ثلاثون ألف دينار . فلم يعرف الحسن بن الحسين الرخجي من هذان فدخل عليه رجل كان يتطايب لفخر الملك ويأنس به . وكان يلقبه الكوسج اللحياني لكثافة الشعر في أحد عارضيه وخفته في الآخر ، فدخل على الرخجي متظلما من جار له ، متقربا اليه بخدمة فخر الملك ، فقال : يا مولانا انه كان يطلعني فخر الملك على أسراره ، ويلقبني بالكوسج اللحياني. فقال الرخجي لأصحابه : لا تفارقوه إلا بعشرين ألف دينار. وتهدده بالعقوبة ، فحملها بختومها ، ثم تفكر الرخجي في قول فخر الملك : عند بسرة بقمعها . فقال هو الصابئ . فأحضر هلال بن المحسن ، وخابه سراً. وكان هلال أحد كتاب فخر الملك ، فلم ينكر. فقال له الرخجي : قم أيها الرئيس آمنا ، ولا تظهر هذا الحديث لأحد ، وانفق المال على نفسك وولدك . ثم حضر ابن الصابئ علي أبي سعد بن عبد الرحيم في وزارته. فقال له : قد عرفت مادار بينك وبين الرخجي ، وأنت تعلم حاجتي الى حبة واحدة ، وتأولي على من لا معاملة بيني وبينه ، ولا يسبقني الرخجي الى مكرمة ، وما كنت لأنكب مثلك ، والصواب ان تشتغل بتاريخ أخبار الناس. فاشتغل ابن الصابئ من ذلك الوقت بتاريخه الذي ذيله على تاريخ ثابت بن سنان فاستخدمه الملوك ، فلم يحتج الى انفاق شيء من المال ، وخلف ولده ابا الحسن غرس النعمة وخلف له املاكا نفيسة على نهر عيسى ، وانفق مقتصدا في النفقة وعمر الاملاك ، ولم يطلع احدا من أولاده على ذلك. وظن أولاده أن تركته تقارب الألف دينار، فوجدوا له تذكرة تشتمل على دفائن في داره ، فحفروها فكانت اثني عشر ألف دينار ، وكان ما خلفه من القماش وغيره لا يبلغ خمسين دينارا . وأنفق أولاده التركة في أسرع زمان.

مصادر الكتاب والمقتبسون

أتيحت للصابي في تأليف كتابه أمور جعلته ثقة فيما يروي ، وأول ذلك صفته الرسمية في الدولة التي أظفرته بالوثائق الرسمية. ففي صفحة ١٥ يقول : " ووجدت عملا يشتمل على ذكر أحمد بن محمد الطائي وما ضمنه من الأعمال .. " وفي ص ١٦٦ يقول : " ووجدت ثبتاً بما كان أبو الحسن بن الفرات يخاطب به السادة والأمراء وأولاد الخلفاء والولاة والكبراء ..." وفي ص ٢٤٥ يقول : " وقع بيدي ثبت أخرج من ديوان المغرب في أيام الراضي بما أخذه المحسن بن علي بن محمد بن الفرات من الخطوط ممن قبض عليه وصادره في ايام وزارتهم الثالثة ..." ولا غرابة في أن يتمكن من الاطلاع على الوثائق السمية ، فقد اشترك في أرقى المناصب وعمره لم يتجاوز العشرين ، ويدل على ذلك ما يقوله في ص ١٧٠ : " وعهدي وأنا أوقع في قصص المتظلمين في أيام صمصام الدولة عن أبي إسحاق جدي في ديوان الإنشاء الى قضاة الحضرة ..." ومعلوم ان جده توفي سنة ٣٨٤ وأن هلالا المؤلف ولد سنة ٣٥٩ وصمصام الدولة تولى الملك سنة ٣٧٢ وقتل سنة ٣٨٨ هـ.

والأمر الثاني الذي وثقه اطلاعه على تاريخ ثابت بن سنان خال جده وقد أرخ ثابت من أواخر القرن الثالث الهجري الى سنة ٣٦٠ هـ ، وهي فترة عاصرها ، أو لقى معاصريها .

والأمر الثالث ما رواه او نقله عن القاضي التنوخي أبي علي المحسن مؤلف نشوار المحاضرة ، والفرج بعد الشدة ، والمستجاد من فعلات الاجواد . والتنوخي ولد سنة ٣٢٧ وتوفي سنة ٣٨٤ هـ والاخبار التي رواها شافه أغلب معاصريها. يضاف الى هذا أنه اطلع على كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ، وكتاب الوزراء للصولي ، ومع هذا لم يعجبه الصولي في تأليفه حيث يقول عنه : لكنه ملأه بالحشو الزائد ، وكسفه بشعره البارد . وعلى الرغم من تسخيفه للصولي نقل عنه خبرين . وإلى جانب هذا تلقى عن طريق الرواية والسند أخبارا من أناس اتصلوا بالدواوين ، وخالطوا الحاكمين ، وتجد ذلك منبثا في أغلب الكتاب.

أما الناقلون عن كتاب الوزراء للصابي فأهمهم ياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء ومعجم البلدان وأغلب نصوصه من الأقسام الضائعة من الكتاب ، وقد اشار آمد روز الى ان الصفدي نقل عنه في كتابه الوافي والوفيات، كما نبه ميخائيل عواد الى نصوص منقولة ، وفي خطط المقريزي ، وصبح الأعشى ، وبدائع البدائع ، والنجوم الزاهرة ، والاذكياء لابن الجوزي. ونبه الدكتور مصطفى جواد الى نصوص منقولة ، توجد في معجم الالقاب وتاريخ ابن النجار.

ومن بديع اقواله :

" ان الله تعالى خلق الحيوانات كلها على اختلاف الفطر والأوضاع، وتباين الصور والأنواع ، خلقاً واحدا في الأشخاص والأشباح ، والأفئدة والأرواح ، ثم خص الإنسان من بينها بالعقل الذي أرشده إلى معرفته ، وما أراده له من عبادته ، وأوجب له من الطاعة وشكر المنة مزيدا حاضرا ، وثوابا منتظرا ، وأوجب عليه عن المخالفة وكفر النعمة انتقاما عاجلا، وعذابا آجلا : ((ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم)) . وجعل عطاء الإفضال أكثر، وعطاء العقل أقل ، لأن مادة الإفضال غزيرة ، ومادة العقل عزيزة .

وقد اختلف في كيفية العقل ، فقال قوم : نور من الله مقتبس ، وقال آخرون : خلق مستخلص ، واستشهدوا بالحديث الذي ترويه العامة من ان الله تعالى قال للعقل وقد خلقه : أقبل . فأقبل . وأدبر ، فأدبر . فما فعل ذاك قال : وعزتي وجلالي وعظمتي ما خلقت خلقا أحسن منك ، بك آخذ وبك أعطي . وقال اهل الكلام : هو معارف يجمعها الله تعالى في قلب عبده إذا أخذه بالتكليف يحسن له بها الحسن ويقبح القبيح . وإنما سمي عقلا لأنه يعقل عن القبيح ، أي يحبس كعقال الناقة الذي يمنعها أن تسرح . وليس تكليف العقلاء كتكليف الجهلاء ، ولا آلة الفريقين في الأفعال متوازية ، ولا مؤاخذتهما بالأعمال متساوية ، ولذلك قال الله تعالى: ((إنما يخشى الله من عباده العلماء)) ، ولو أوخذ الجاهلون ما يؤاخذ العالمون لان ذلك جور في القضاء ، وحيف في الجزاء ، لأن الله تعالى كلف كل نفس بحسب قوتها ، وأخذها بما جعله في قدرتها . ولو أن أحدا غلط غلطا جاهلا بحكمه ، وأخطأ خطأ خارجا عن علمه ، لما تعين عليه حكم ، ولا تعلق به حد . وعلى ذاك ، فمتى كان علم الإنسان أكثر من عقله كان حتفه في علمه ، أو عقله أكثر من علمه أمكنه به جبر عجزه واتمام نقصه ؛ وما دبر العقل شيئا إلا أقام أوده وعدل ميده (١) ، ولا دخل الجهل أمرا إلا حل نظامه وأحال التئامه.

فقد ثبت أن الفضل فرع أصله العقل . ثم تدعو الحاجة مع وجود هذا الاصل الى الله بان يعلي اساسه ، ويسقي غراسه ، من أدب يقتبس ، وعلم يكتسب ، ورياضة تصلح ، وتوفيق يلحق ، فاذا التقى من ذينك فرع وأصل ، واقترن أدب وعقل ، اجتمع بهما قوى العقل ، ولمع بينهما نور الحزم ، وأمكن رافع البناء أن يرتقي ذروته ، وغارس الغرس ان يجني ثمرته ..."

هوامش

❖ (له ترجمة في ابن خلكان ومعجم الادباء ونزهة الالباب والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٦٠ حوادث سنة ٤٤٨ وشذرات الذهب جـ ٣ والمنتظم جـ ٨ حوادث سنة ٤٤٨,)

(١) الأود : العوج . والميد : الميل

عن أحمد الباقري وتعاليمه

كمال سبتي

في كل مرة أنوي الحديث عن حياتنا الأدبية في مدينتي الناصرية، وبخاصة منذ سنوات سبعينيات ما قبل السفر الدراسي إلى بغداد، فإني أتجنبه متذكراً أخاً كبيراً لي ومعلماً من معالم مدينتنا : القاص والروائي والكاتب المسرحي والناقد والشاعر والمترجم والفنان : أحمد الباقري ، وأقول لعله يبدأ هو فيأتي حديثه أغزر في التاريخ والوقائع إذ أنه سيبدأ من نقطة في الزمن هي غير النقطة التي سأبدأ منها حتماً ولأنه ابن المدينة وأديبها بالواقع الحي اليومي ، بينما أنا ابنها بالحنين والتذكر.

وقد بقي الكلام عن أدبنا في الناصرية وأيامنا الأدبية ومقاهينا حقلاً غير مشتغَل فيه كثيراً جراء خشية مبررة عند أي جريء من خارجنا - حتى إن كان أكاديمياً ذا منهج - من أن يكون معتدياً علينا وعلى تاريخنا الروحي.

ونحن أدباء المدينة ولدنا في أجيال مختلفة فكان كل جيل سابق يربي الجيل اللاحق في جلسة حديث في مقهانا الأدبي "مقهى أبي أحمد" أو في لقاء في المكتبة العامة أو في مجالسة متجاورة في صالة ثقافية..أو في صف مدرسة..أو..أو..

وإذ تختلط الأسماء والأجيال في لجة الوقائع المتشابهة والمختلفة واختيار المصائر بعيداً عن المدينة ومركزها الأول فيعرف أن عدداً من أدبائها غادرها مثل الراحل "عبد القادر رشيد الناصري..من مواليد كركوك جاء الناصرية وغادرها" والراحل حامد العزي "من مواليد العمارة ومتوفى في المغرب" والراحل قيس لفتة مراد والراحل عناية الحسيناوي والراحل خالد الشطري والراحل كاظم جواد والراحل الشهيد عزيز السيد جاسم والراحل محسن إطيميش وصلاح نيازي وعبد اللطيف إطيميش وعبد الرحمن الربيعي وعبد الرزاق رشيد الناصري وعزيز عبد الصاحب ومحسن الموسوي وفاضل عباس هادي وشوقي عبد الأمير وحسن الخياط وغيرهم فإن اسمين من أدباء المدينة بقيا في المدينة في تلك السنوات مرتبطين بها أشد ارتباط وممثلي جيلين متعاقبين ومؤثرين سبقانا..هما: الشاعر "الخمسيني" الراحل رشيد مجيد والقاص والمترجم "الستيني" أحمد الباقري.❖

ولأن مناسبة المقال حديثي عن أحمد الباقري فسأترك مثله عن المدينة إلى قدر آخر.

كان أحمد الباقري يقول "عرفت كمال سبتي وهو ابن أربعة عشر عاماً" فيصلني قوله وأنا في بغداد في السبعينيات والثمانينيات فأضحك وأتذكر تعرّفي إليه في تلك السن وجلساتنا في ما بعد في مقاهي المدينة ومنها مقهانا الأدبي: "مقهى أبي أحمد" وسط سوق المدينة..وقد كان مقهى فقيراً بأثاثه وأغراضه ، وأرستقراطياً بالمرحوم أبي أحمد وترفعه على زبائنه مناكدة.

حين كنت أدخل إليه كالتلميذ وقد كنت تلميذاً حقاً فقد كان "أبو أحمد" يتفحصني ملياً ، ويضع استكان الشاي أمامي قائلاً بنبرة جادة: شايك ابني. وفي ما بعد حين رأى أن الراحل رشيد مجيد يهتم بي وكذلك أحمد الباقري ويقدم لي كتباً وغيرهما من الأدباء اقتنع أبو أحمد بأن التلميذ هو "مشروع أديب" في تلك السلالة فأخذ يهتم بي هو الآخر..ويمازحني بين الحين والآخر علامة على ترحيبه بوجودي.

كان مقهى أبي أحمد مهاباً من بقية صحبي بسبب طابع أدبي جاد فيه فلا يدخلونه فينتظرونني في مقهى شعبي آخر..

هيبة أتذكرها في الحديث فيه عن مواقف أدبية صارمة مثل انتحار مايكوفسكي أو "رفض سارتر تسلم جائزة نوبل".. أو رفضنا نحن موقف جون شتاينبيك المؤيد حرب فيتنام في تضاد مع رواياته التي قرأناها كـ"عناقيد الغضب" و"اللؤلؤة" و"أفول القمر" و"شرق عدن" و"رجال وفئران" و "البحث عن إله مجهول" و"شارع السردين المعلب"..إلخ بل وحفظت أنا شخصياً أغنية عن "توم جود" بطل "عناقيد الغضب" غناها تروتسكيون أميريكيون كانوا اتخذوه بطلهم :

Tom Jod
We need your words
We need your fingers
We need you

فكان ينمو كل موقف في وعينا رفضاً أدبياً للجوائز ومسابقاتها أو الكتابة الدعائية عن حرب أو عن قائد سياسي حاكم مهما كان حزبه. فالموقف الأدبي أرقى من كل موقف حزبي وأولى منه.

مواقف بل تعاليم صعبة تبناها أدباء المدينة وخانها ضعفاؤهم في ما بعد أمام دنانير الجوائز والدكتاتور.

ولقد عاش متبنوها حياة شقية في بغداد وفي الناصرية وفي كل مكان وصلوا إليه.

وكان أحمد مثالاً منهم. وحين كنا نستذكره في بغداد أنا وصديقي الشهيد عزيز السيد جاسم كنت أقول لأبي خولة : هو في الناصرية وأنا في فنادق بغداد..وبيننا عهد على ألاّ نتلوث بدنانير الجوائز والدكتاتور.

أحمد الباقري

رفض أحمد الجوائز ومسابقاتها الحربية الدعائية ولم يكتب عن "القائد" فعمل بائع تذاكر في إحدى دور السينما في الناصرية أيام الحصار ثم بائع سجائر على الرصيف ينسى هدفه التجاري فيوصي الزبون بضرورة إقلاعه عن التدخين ، على الرغم من أنه كان "ومازال" مدخناً شرهاً أولاً وبائع السجائر تالياً!!

وحين كانت تصلني أخباره بعد هربي من العراق وأنا في يوغسلافيا أو في قبرص أو في إسبانيا أو في هولندا فلا أفعل أكثر من تذكر سنوات الشقاء في الفنادق الردئية ببغداد حتى لا أكتب أدباً دعائياً أو مديح دكتاتور ، وأقول يا للعهد الذي بيننا ويا للتعاليم الأدبية الصارمة..ويا للمكتبة العامة..ويا للصحبة..ويا لمقهى أبي أحمد.

أرسل إلي الباقري أيام حكم صدام رسائل من الناصرية ليؤكد لي بقاءه أميناً للتعاليم الصارمة ومفسراً لي بما كانت تسمح به ظروف الرقابة آنذاك ابتعاده عن جادة الدكتاتور وأدب مسابقاته ونقوده : " بيت الدعارة الذي يبيع فيه الأديب ضميره وشرفه" ، ومؤكداً عزوفه عن الاشتراك في حفلاته. يقول في واحدة من رسائله إلي أيام ذاك الحكم:

"وصلت إلى يقين..ولو أنني قد عرفته منذ زمن بعيد..وهو أن الأديب الحقيقي وحيد كنجمة الصباح..لايأخذ من دنياه عشر ثمن عطائه الأدبي.

إني لم أتغير..فأنا ذلك الانسان الذي يعطي بدون مقابل..أؤمن أن الأدب كالماء والهواء والطعام للإنسان..لايؤخذ شيء مقابله..

ومازلت أؤمن أن النقود غواية..وهي الهاوية التي يسقط فيها الإنسان..سواء أكان أديباً أم إنساناً عادياً..ويفقد شرفه في حضيضها المظلم الوسخ..

وهي بيت الدعارة الذي يبيع فيه الأديب ضميره وشرفه..وتتمزق رسالته الإنسانية في أفرشة غرف هذا البيت القذر..والحقير.

لم أربح في حياتي الأدبية مالاً يكافىء جهدي في كتابة الأدب..لم أربح سوى السمعة الطيبة واحترام الناس لي وحبهم الكبير..وهو التاج الذي أتمنى أن يكلل هامتي."

بين آذار ونيسان من العام الماضي زرت مدينتي الأمّ بعد غربة طويلة فقرر أدباء المدينة إقامة أمسية لي واقترحوا أحمد الباقري مقدماً لها فأجابهم في ذلك المقهى الجديد الذي شهدنا فيه تراشقاً بالنيران بين قوات الحلفاء وجيش إمامنا المنتظر : "طبعاً أنا أقدمه..فأنا أعرفه منذ كان عمره أربعة عشر عاماً"..وقهقهنا كلنا.

ولم تقم الأمسية..بسبب المعارك. وغادرت المدينة فالبلد وأنا أفكر في تقديمه الذي لم يلقه والذي ربما كنت أعرفه عن ظهر قلب منذ تلك التعاليم الأدبية الصارمة.

وقبل تسعة شهور أبرد أحمد إلي روايته الجديدة "ممر إلى الضفة الأخرى" وعليها إهداء مؤثر ، يقول لي في بعضه : "أحبك أكثر مما أحب أخي". قرأته وأخذت أبكي.

البارحة هتفت إليه في الناصرية..فكان هو يتكلم وكانت الدموع تترقرق في عيني متذكراً تعاليم ذلك المقهى وتلك الصحبة وقوله لي في تلك الرسالة :

"إن الشعر عذاب لذيذ. إنه وثيقة زواج مع العالم وتصفية حساب مع سكانه ومع النفس.

أليس كذلك يا كمال ؟ ألم يكن ما كتبته من شعر في رحلة حياتك هو الكنز الذي بحث عنه السندباد البحري ؟ وهو الجزة الذهبية التي بحث عنها يوليسيس ؟ وهو عشبة الخلود التي سعى للعثور عليها جلجامش ؟"

نعم يا أحمد الغشيم في الحياة ، أيها المعلّم..

هذه الكتابة تحية لك من صديقك الغشيم في الحياة أيضاً.

وتحية لتلك المدينة التي غادرتُها شاباً للدراسة فالخدمة العسكرية الإلزامية فالهرب من العراق.

شيء عن أحمد الباقري :

ولد سنة ١٩٤١ في الناصرية.

درس في مدارسها الابتدائية والمتوسطة والإعدادية

ثم درس في معهد الفنون الجميلة –قسم الرسم في بغداد وتخرج فيه عام ١٩٦٢- ,١٩٦٣

نشر أول قصة قصيرة بعنوان "اللصان" في مجلة الآداب اللبنانية عام ,١٩٦٢

نشر أول قصيدة نثر بعنوان "نداءات" في مجلة الكلمة النجفية عام ,١٩٦٧

نشر كتاباً مترجماً عن الشعر الفرنسي في القرن العشرين بعنوان "رصيف سوق الأزهار" عام ١٩٧١..احتوى على تقديم شعراء داخلي ، كتبه الشاعر الشهيد خالد الأمين.

نشر ترجمة للمسرحيات التالية في مجلة الثقافة الأجنبية العراقية :

١- الزنوج –جان جنيه.
٢- الموسيقى –مرغريت دورا.
٣- العبد –ليروي جونز.

نشر ترجمات لقصص من تأليف كتاب كبار مثل وليم فولكنر ، ترومان كابوت ، مرغريت دورا ، ميشيل بوتور ، وليم بورو وغيرهم..

ترجم رواية ملك الذباب قبل أن يفوز كاتبها غولدينغ بجائزة نوبل ، ولم يحظ بموافقة نشرها.

كتب دراسات نقدية عن مجاميع قصصية وشعرية عديدة لكل الأجيال.

نشر عدداً من القصص القصيرة في الصحف والمجلات العراقية والعربية.

كتب نقداً تشكيلياً عن معارض محلية وكتب نقداً مسرحياً عن عدد من المسرحيات في السبعينيات.

نشر نصاً مسرحياً واحداً من فصل واحد تحت عنوان "لا سفر في الليل" في مجلة الآداب اللبنانية عام ,١٩٦٧

صدرت له مؤخراً عن دار قرطاس في الكويت رواية : ممر إلى الضفة الأخرى.

لديه ستة كتب مترجمة "أعرف أسماءها كلها" بين رواية ومجموعة قصصية وشعرية لم تطبع بعد.

هولندا
٩-١٠-٢٠٠٥

❖ ثمة آخرون من أجيال سابقة كانوا بقوا في المدينة مثل الراحل فاضل السيد مهدي"من رواد قصيدة النثر في العراق" والراحل عبد الرحمن الرضا والراحل صبري حامد والراحل عزران البدري والراحل جميل حيدر والراحل الشهيد خالد الأمين والراحل مهدي السماوي والراحل عبد الجبار العبودي وبلقيس نعمة العزيز وناهض فليح الخياط "باق فيها حتى الآن"..إلخ